العودة المتخيلة ـ الماضي إن حكى

عدنية شبلي*

الفناء في انتظار مَن لا يأتي

جدتي واسمها نوفا، توفيت في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، على ما أعتقد، وموتها بالنسبة إلى العائلة، لم يكن حدثاً ذا أهمية.

وصلني الخبر بينما كنت في المدرسة، وكان بمثابة استجابة إلهية لرجاء رحت أردده منذ أعوام، وهو إنقاذي من واحدة على الأقل من تلك الظهيرات المدرسية التي لا تحصى، والمفعمة بملل يتكرر بلا كلل كل يوم مع حلول الحصة الرابعة.

عدت فوراً إلى البيت حيث وجدت أبي جالساً وحده في غرفة الجلوس. سألته إن كان قد عرف بخبر وفاة أمه فردّ بأنه يعرف، ولم أستطع كبح فضولي فسألته إن كان حزيناً. فرد برفع حاجبيه اللذين بقيا مشدودين للحظات، قبل أن يعودا إلى موضعهما السابق. والدتي لم تكن في البيت، ولا أعرف إن كانت قد عرفت بالخبر، وربما ستنضم إلى الجنازة التي لا أعتقد أن عدد حضورها سيزيد كثيراً على العشرين. ربما اثنا عشر أو ثمانية.

جدتي لم تكن تتحدث مع أحد، ولم يكن أحد يتحدث معها، كما أنها لم تكن تحب أحداً ولا أعتقد أن أحداً كان يحبها. حاولت أنا شخصياً أن أمنحها بعض الحب والاهتمام، لكنني توقفت بعدما زجرتني، ذات عصر ربيعي لطيف، بنظرة طويلة باردة.

قبل أن تموت بيوم واحد، وكنت في طريقي إلى المدرسة، عرجت على بيت عمتي كي أقول لها صباح الخير، فوجدت جدتي التي كانت قد انتقلت إلى السكن معها قبل بضعة أعوام وحدها هناك، جالسة كالعادة في غرفة الجلوس، فوق الأريكة ذاتها قبالة باب المدخل، في وضعية أقرب إلى الانتظار منها إلى السكينة. قلت لها صباح الخير، ولم ترد. ومع أن الموقع الذي انتقته للجلوس أناط بها مسؤولية الترحاب بالزائرين، إلاّ إنها باستقبالها هذا لي، أكدت تماماً أنها لا تمنح قدومي ولا قدوم الزائرين أي اهتمام، بل كانت تصوّب بصرها نحوهم بازدراء صامت.

---

* روائية وكاتبة فلسطينية.

خرجتُ وشيء من الحزن يرافقني.

ربما أكون قد عفوت عنها لأنها لم تمنحني بعض النقود حين كنت طفلة كما كانت تفعل جدات كل مَن أعرف من أطفال، بل إنني تنازلت حتى عن الأمل بأن تمنحني ولو قطعة صغيرة من الحلوى التي كثيراً ما كنت أنتظرها بترقب كلما مدت يدها إلى جيب ثوبها التي ما كانت لتخرج إلاّ حاملة منديلها القذر.

تخلّيت أيضاً عن الأمل بأن تحكي لي قصة كتلك التي تعرف كيف تحكيها الجدات فقط. لكن ألاّ تردّ على تحية الصباح؟

يمكن للمرء أن يحزن لكون جدته أو جدتها بغيضة، ملأى بالكراهية إلى هذه الدرجة.

ماتت جدتي في اليوم التالي، وكان آخر ما رأيته منها هو عينيها اللتين بلون الرماد، مفتوحتين على اتساعهما، تنظران إليّ مباشرة، وتدفعاني بقوة نحو باب المدخل كي أخرج في الحال.

بعد وفاتها بيومين ذهبت للمبيت عند عمتي كي أونّسها في وحدتها. كانت عمتي وجدتي تنامان في الغرفة نفسها، يفصل بين سريريهما طاولة صغيرة. وقد خلدنا إلى النوم، عمتي في سريرها، وأنا في سرير جدتي الذي لم أجرؤ على الاقتراب منه حتى قبل يومين فقط.

وبينما كانت العتمة تلتهم الغرفة، قالت عمتي فجأة أنها حزينة على وفاة أمها. سألتها كيف، وجدتي كانت تعاملها بفظاظة قاسية، وهي بدورها لم تكن تعاملها بأحسن من ذلك، فردّت عمتي بأن القلب يضمر عكس ما يصدر. هراء طبعاً، غير أن صوتها الحزين كما لم أعهده من قبل، دفعني إلى السكوت وعدم التعليق. فجأة، وربما بتأثير سحر الاستلقاء فوق سريرها، طلبت من عمتي أن تحدثني عن جدتي.

وعن عمتي، فإن جدتي كانت في الماضي امرأة جميلة. وكان أول مَن وقع في أسر حبها ضابط تركي ولم تكن قد تجاوزت الثالثة عشرة من عمرها بعد، غير أنه لكونه تركياً، استحال أمر تزويجه بها. وقد بقي وقتاً طويلاً يزور منطقة سكناها ليتفقّد أخبارها، وخصوصاً بمَن تزوجت هذه المرة، فجدتي تزوجت عدة مرات، ربما أربع، عدا أولئك الذين أحبوها عن بعد بصمت. أمّا هي، بحسب ما تقول عمتي، فلم تحب أياً من الرجال، عدا زوجها الأخير، جدي حسن.

وكانت قد تزوجته على الرغم من اعتراض ابنها البكر من زواج سابق، وعلى الرغم من أنها كانت تحب هذا الابن بشدة وكانت ستفعل أي شيء من أجله، عدا التخلي عن جدي حسن. وكان عمي هذا وجدّي كثيراً ما يتعاركان، لشدة غيرتهما الواحد من الآخر، بل إن عمي ذات مرة سحب بندقيته ليقتل جدي، غير أن جدتي التي كانت أيضاً قوية جداً، شدّتها منه وقالت إنه إن مسّ حسن فستقتل هي نفسها. وقد جرى هذا الشجار أمام عمتي التي كانت هي أيضاً ممزقة بين حبها لنصف شقيقها وحبها لأبيها.

ومن أفعال الحب بجدتي أنه ما إن كان جدي يغيب لمدة تزيد على اليومين حتى تخرّ مكانها من ألم الشوق، ولا تتوقف طوال غيابه عن انتظاره والتغنّي به بقلب حزين. ثم حين

يصلها من بعض الخيّالة أنهم رأوا جدي عائداً إلى منطقة سكنانا، كانت تهبّ من حزنها وتهرع لملاقاته في الطريق، حيث تبدأ بتقبيله في كل مكان وهي تنشد: "يا حسن يا غايب، حبك زاد في قلب الحبايب". وكان جدي يضحك بزهو ودلال، بينما الناس من حوله يتأملون بإعجاب هذا الحب الجارف الذي يجعل نوفا الخليل تقبّل قدمَي حسن الأسعد على الملأ.

وتضيف عمتي بعد الاستنكار، أنها كثيراً ما شعرت بالحرج من حب أمها لأبيها، والذي كان يصنع منها امرأة هشة وضعيفة. سألتُ عمتي عن جدي وماذا حدث له. متى مات؟

بعد تردد أجابت عمتي، "سنة ١٩٤٨". كان ذلك بعد معركة الشجرة التي تصدى فيها المقاتلون، وبينهم جدي، لعصابات الهاغاناه ودحروهم عنها. لكن بعد وصول إمدادات جيش الإنقاذ، عاد الصهيونيون ليشنّوا هجوماً على منطقتنا، قُتلت خلاله امرأة اسمها نمرة الحسين تكون ابنة أخ جدي حسن، وطفلها، وجدّي حسن.

جدّتي، ما برحت منذ تلك اللحظة بانتظار عودته إلى الحياة، كي تعود معه هي أيضاً إليها. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

اليد ترى والقلب يرسم

سيرة تمام الأكحل وإسماعيل شموط

تمام الأكحل

تحرير غانم بيبي تقديم الياس خوري

٢٨٤ صفحة ١٢ دولاراً